المسرح فى خدمة المجتمع المصرى

للأستاذ سلامه موسى

من المسلم به أن المسرح ملهى ، فيجب أن يحتوى على المغريات التى يلهو بها الجمهور ويتسلى ويجذب بها اليه . وإذا قصدنا من المسرح إلى الخدمة والفائدة الاجتماعيتين فاننا لا نستطيع أن ننكر هذه الحقيقة وهى أنه ملهى . لأننا إذا أنكرناها عاد المسرح وكأنه مدرسة لا يحضرها الجمهور إلا مكلفا . وعندئذ يضيع كل مجهود فى الخدمة المبتغاة . والدرامة تجسم المواقف وتثير فى النفس نغمة العواطف ، وهى لذلك أمثل الوسائل الفنية للكشف عن الأدواء وللإشارة إلى الدواء .

ولم تخل الدرامة منذ نشأتها من التوجيه الاجتماعى سواء أكان هـذا بالعرض أم بالنقد أم بالإيماء أم بالتصريح . وهذا طبيعى ، إذ هى تعالج حادثة من حوادث الاجتماع البشرى فى الماضى أو الحاضر ، والمؤلف بمحض عرضه لهذه الحادثة يؤثر فى الجمهور المتفرج حتى ولو لم يقصد إلى هـذا التأثير . والمسرح لهذا السبب يعد مدرسة سواء أراد القيمون عليه أم لم يريدوا . بل هو من هذه الناحية يعد مدرسة كبيرة التأثير ، لأنه لا يلقى درسا إلا عن سبيل إثارة العواطف . ثم هو لتجسيم الحادثة يجعل درسه قدوة بمن نرى عليه من أشخاص يسلكون سلوكا معينا له إيحاؤه فى نفوسنا إن شرا وإن خيرا . والقدوة أفعل فى النفس من التعليم .

ولكن المسرح الأوربى قد اتجه منذ نحو خمسين أو ستين سنة وجهة اجتماعية تمتاز بتعيين الغـاية التى يقصد اليها المؤلف وبتحديد المشكلة التى يعالجها . فقد كان المؤلف قبل ذلك يعالج الموضوع كائنا ما كان وغايته التسلية فقط ، وكانت الآراء الاجتماعية أو الأخلاقية ترد جزافا أو كما يقتضى تطور الحادثة على لسان أشخاص الدرامة . ولكن المؤلف الجديد جعل للدرامة الحديثة محورا اجتماعيا هو إحدى المشكلات القـائمة . فالجمهور المتفرج يرى حادثة تنكشف عن مشكلة اجتماعية يسير بها المؤلف إلى مأزقها أو ذروتها ويفصل فى ثنـاياها ما يلابس المجتمع من عيوب تتطلب العلاج . فالجمهور يخرج وقد استنار فى هذه المشكلة ، لأنه رآها ممثلة مجسمة فى أشخاص الدرامة لا تختلف عن الواقع الذى يحدث خارج المسرح . وهو لهذه الاستنارة يجد ما يحفزه ويستفزه إلى إصلاح هذه العيوب . وعندئذ يصير المسرح قوة إصلاحية كبيرة .

وأعظم المؤلفين الذين دفعوا المسرح الأوربى إلى خدمة المجتمع هو هنريك ابسن (١٨٢٨ — ١٩٠٦) وهو مؤلف نرويجى وضع طائفة من الدرامات التى يعالج كل منها مشكلة اجتماعية ، مثل استقلال المرأة أو الزواج أو غير ذلك . وشاعت طريقته فسار عليها مؤلفون كثيرون يتفاوت فى المهارة والدقة . ورأينا فى انجلترا برنارد شو وجالزورثى . وفى فرنسا بريو وهرفيو وباتاى . وفى ألمانيا سودرمان . فان هؤلاء المؤلفين تناولوا مشكلات اجتماعية تتصل بالزواج والجريمة ، والفقر والحب ، والمرض والتشريع فعالجوها . فكانوا بهذه المثابة مصلحين اجتماعيين كما كانوا مؤلفين مسرحيين . وصار الجمهور المتفرج يستنير فى شئونه الاجتماعية ومشكلاته الاقتصادية والأخلاقية مع الامتاع الفنى واللهو المسلى .

وما أجدرنا فى مصر بأن نجعل المسرح يؤدى هذه الخدمة للجمهور . فان مشكلاتنا الكثيرة التى تتصل بالزواج والطلاق ، والفقر ، والعادات السيئة فى المآتم والأعراس ، وأمانة التاجر وجد المزارع ، وأعباء الديون ومشكلة التعليم ، وتربية الشخصية ، وغير ذلك قد نستطيع أن ننبه الجمهور اليها بكتابة المقال أو بتأليف الكتاب . ولكن هذا التنبيه لن تكون له قوة الايحاء والبعث على الاصلاح كما يكون للمسرح . لأن المقال أو الكتاب ينير بالتعليم والتعريف . ولكن المسرح ينير بالقدوة وتجسيم الوقائع . والفرق عظيم .

ولهذا السبب نعتقد أن من المفيد لجميع المشتغلين بالتمثيل أو المتصلين به أقل اتصال فى مصر أن يدرسوا هذا التوجيه الاجتماعى للمسرح . وخاصة هنريك أبسن و برنارد شو . فاننا يمكننا أن نختار منهما كثيرا من الدرامات نبين فى كل منها المشكلة الاجتماعية التى يعرض لها أحدهما والطريقة التى عالجها بها والعبرة التى نستطيع أن نخرج بها منها للمجتمع المصرى الذى يختلف فى كثير من أحواله عن المجتمع الأوربى . والمؤلف والمخرج والممثل كل هؤلاء ينتفعون بدرس الدراما الأوربية و بالتطورات التى مرت بها حتى انتهت إلى تمثيل المشكلات الاجتماعية . ويجب أن نحى عن أذهاننا ذلك الرأى القائل بأن الممثل لا يحتاج إلى كل هذه المعارف أو إلى الإحاطة بالثقافة المسرحية ، لأنه يؤدى دوره على المسرح ومعه الملقن وليس عليه سوى إجادة الإلقاء . فان للثقافة أثر التغيير فى الشخصية . والممثل العظيم يجب أن يكون مثقفا ذا دراية تامة بجميع التيارات التى أثرت فى المسرح ووجهته قديما وحديثا . وهو يحسن التمثيل بمقدار ماله من حماسة للاصلاح الاجتماعى ومن دراية بالمواقف فى الحياة العامة . ولا يكون هذا إلا بالتثقيف . فكل من الممثل والممثلة فى مصر يجب أن يعرف تاريخ الدراما على وجه الإيجاز ، ولكن عليه أن يعرف على وجه التفصيل والإسهاب الحركات المسرحية الحديثة التى جعلت المسرح جزءا حيا له أثره فى الإصلاح الاجتماعى .

ولسنا بذلك نغضى النظر عن قيمة الفن فى التمثيل والمهارة فى الإخراج ، فإن لهما قيمتهما العظيمة. بل إن هذه القيمة تزداد إذا كان الممثل مثقفا يدرك البواعث و يبصر بالنتائج المبتغاة.

وقد قضى المسرح المصرى إلى الآن نحو خمسين سنة وهو يتدرج فى غير نظام . فيتقدّم أحيانا و يتعثر أحيانا أخرى، بل لقد مرت به فترات ارتد فيها إلى الوراء . وأخيرا أخذت الحكومة بيده ونفحته بمعونات مالية كان لها أحسن الأثر فى ترقيته. ولكن الدرامة الاجتماعية المصرية لم تظهر فيه حتى الآن .

والخطوة الأولى فى إيجاد هـذه الدرامة أى فى توجيه المسرح للاصلاح الاجتماعى هى — كما قلنا — درس أولئك المؤلفين — وخاصة هنريك أبسن و برنارد شو حتى نوجد الجوّ الثقافى لهـذه الموضوعات بين الممثلين و جميع المتصلين بالمسرح . ثم تلى ذلك الخطوة الثانية وهى تكليف الكتاب المصريين المعروفين تأليف درامات تبحث المشكلات الاجتماعية المصرية . وطريقة المباراة التى اتبعت إلى الآن لم تكن الطريقة المثلى . لأن الكتاب الكبار يرفضون . وصغار الكتاب بل المبتدئون يتزاحمون لأنهم يجهلون الموضوع . وخير من ذلك أن تعهد الوزارة إلى نحو سبعة أو ثمانية من الكتاب المعروفين بالتأليف، وتؤدى لكل منهم مكافأة معتدلة، ولا تجعل المكافأة متوقفة على قبول الدرامة. بل كل ما يطلب من المؤلف أن يؤلف. أما النجاح والقبول فتجب المغامرة بهما فى سبيل الحصول ولو على درامة واحدة مفيدة ناجحة .

ونظن أننا نحتاج إلى المبادرة والتشمير فى هـذا الموضوع . ذلك لأن السينما تسير بخطى واسعة . وصحيح إن المسرح سيتفع من هـذه الخطى . ولكن يجب ألا نخدع بذلك لأن التقدّم السينمائى يجذب الجمهور بألوان من الإغراء لا يمكن المسرح بهدوئه أن يزاحمه فيها . فإذا استمرت الحال على ذلك طويلا فى مصر فإن المسرح سيتخلف ويكون الجمهور قد اعتاد الكمال الفنى السينمائى فيسأم الدرامة الممثلة . بل هو الآن إلى حد ما كذلك يقبل على السينما ولا يحب من الدرامات إلا تلك التى يمكن أن توسم بأنها " إرجافية " كأنها تحاكى الإرجاف السينمائى . وأحيانا نقف حائرين إزاء الخيبة التى نعانيها متسائلين : هل فاتنا أوان الرقى المسرحى ؟

ولكن هذه الحيرة ليس لها ما يبررها. ويجب أن ننهض بالمسرح مهما تكن الصعوبات. وكل ما نحتاج إليه أن نوجد طبقة هوت التمثيل ودرسته وأحاطت بثقافته وأدركت تياراته الحديثة . ثم نكل إلى الأدباء البارزين تأليف درامات تدرس المشكلات المصرية . و بعد ذلك نستغل الرقى الفنى فى جذب الجمهور .